عفريت الليل

كان الوقت ابان الظهيرة .. وقد أظلتنى من وهج الشمس شجرة عتيقة كأنها والزمن صنوان .. وجلس العجوز أمامى يسبح بمسبحة فى يده ويتمتم بألفاظ لعله يستغفر ربه .. وبدا البيت أمامى كأنه قلعة ضخمة من قلاع العصور الوسطى .. فوددت لو استطعت أن أخترق ببصرى تلك السحب المسدلة من الجدران الضخمة حتى أبصر ما بداخلها من الأحاجى والأسرار .. وقلت للعجوز أستحثه على الكلام :

– تقول ان هذه الدار لم يقطنها انسى قط ؟ أتقصد بذلك أنه قد يكون بها سكان من نوع آخر ؟

– نعم يابنى .. لقد استبدلت الدار سكانا بسكان .. لقد كانت الدار تعج بالحياة .. فأصبحت تضج بالصمت والعدم ، ولو أنى لم أرها قط الا فى هذا الصمت والعدم .. فمنذ أن وعيت على هذه الدنيا ، وأنا أبصرها كما تبصرها الآن .. موحشة كئيبة .. مقفرة مظلمة .. ولكن أبى قد أنبأنى بقصتها التى سمعها عن أبيه عن جده .. فقد توارثت

عائلتنا الحراسة فى هذه الدار جيلا بعد جيل .. حتى أصبحنا لازمة من لوازمها كهذه الشجرة التى تظلنا الآن ..

تبدأ قصة هذه الدار فى غابر الزمن عندما كانت قصرا لحاكم المدينة وكان رجلا حكيما عادلا .. وكانت قلوب الرعية تفيض بحبه والولاء له .. ولكن البلاد كانت ترزح فى ذلك الوقت تحت نير سلطان أجنبى .. وكان على حاكم البلدة أن يؤدى له جزية سنوية فادحة .. ففى احدى السنين طلب منه السلطان أن يضاعف الجزية ، ووجد الحاكم أن ذلك افراط فى الحيف والظلم .. فرفض أن يجيب السلطان الى مطلبه وأعلن العصيان .

وكان السلطان فتى طائشا أحمق فتملكه الغضب وأمر بأن يجهز جيشا لتأديب ذلك الحاكم العاصى .

وبدأ الحاكم يكوّن جيشا من أهل المدينة لصد الجيش الغازى .. وسرعان ما احتشد أهل المدينة وقد تناولوا كل ما استطاعت أن تصل اليه أيديهم من أسلحة وهراوات ، وفؤوس .. واصطدم جيش الطغاة بأهل المدينة البواسل ففتك بهم فتكا شديدا .. وتحصن الحاكم وبعض من جنوده فى هذه الدار .. فلم تطل مقاومتهم الا فترة وجيزة .. استطاع الغزاة أن يقتحموا بعدها الدار فسقوا الحاكم ورجاله كأسا دهاقا ومزّقوا جثثهم اربا اربا .

وسيقت النساء سبايا .. وبدأ السلطان الأحمق يستعرضهن واحدة واحدة .. وكانت أولاهن ابنة الحاكم ، فأخذ الفتى بجمالها .. ولم يستطع أن يقاوم بريق عينيها أو سحر شفتيها ، ولم يحاول أن يرى غيرها من السبايا .. بل أمر حاشيته وقواده بأن ينصرفوا عنه ويتركوه مع الفتاة .

وقع السلطان فى شرك هواها وحاول أن يستميلها اليه . ولكن قلبها كان يفيض بالبغض والكراهية له .. ولم يجد اغراؤه اياها بالزواج .. وبأن تكون ملكة متوجة ، فقد استمرت تلقاه فى جمود كأنها جسد بلا روح .. وأخيرا نفذ صبره .. فصمم على أن ينتزع منها الحب انتزاعا .. فأمر بأن توضع في قبو فى أسفل الدار .. وأحضر أحد البنائين وأمره بأن يقيم جدارا يسد به باب القبو ، فلا يترك منه الا فتحة ضيقة .. وأنبأ الفتاة أنه سيدفنها حية فى هذا القبو أن استمرت على ازدرائها اياه واحتقارها له .. وأخبرها أنه سيترك لها فرصة يوم لتنبه بما استقر عليه رأيها .. وأن عليها الآن أن تختار بين حبه وبين هذه الميتة المخيفة .

وفى اليوم التالى نزل الفتى الى القبو وسألها : اما زلت مصرّة على نفورك ؟ .. ولكن الفتاة استنكفت أن تجيبه .. فما كان من الطاغية الا أن سد الفتحة الباقية من الجدار .. وترك الفتاة حية فى قبرها .

وفى نفس اليوم اشتعلت بين جنود الفتى فتنة فثاروا عليه وهاجموا القصر ، فحاول تهدئتهم ، ولكن أحد الجند طعنه فى صدره فخر الى الأرض صريعا ، وأحس أن نهايته قد أخذت تدنو وشعر بالندم يخزه على حبسه الفتاة حية فى ذلك القبو .. وبدأ يتحامل على نفسه فأمسك بفأس وأخذ يزحف بها نحو القبو حتى وصل الى ذلك الجدار الذى أقامه ، وهم برفع الفأس ليثقب الجدار ، ولكن قواه خانته فهوى الى الأرض جثة هامدة .. وبقيت الفتاة حبيسة فى قبرها .. وبعد بضعة أيام ثار أهل المدينة فطردوا جيش الغزاة . واستردوا دار الحاكم ولكن أحدا لم يجسر أن يقطنها أو يزاحم هذين الروحين اللذين يأبيان أن يفارقاها .. فاحداهما حبيسة فى القبو الأخرى حائرة اما الجدار تحاول اخراجها .

وصمت العجوز فكدت أنفجر من فرط الضحك .. يا للأقصوصة الممتعة ! أهذا هو مايخيف الناس من سكنى الدار ؛ روح سجينة فى القبو وروح تحاول هدم الجدار .. أمن أجل هذه الخرافة المضحكة التى يرويها العجوز الأحمق تبقى الدار مهجورة مقفرة طوال تلك السنين ؟ .. واذا كانت تلك العقول الضيقة قد صدقت هذه الأسطورة الركيكة .. فلم لايحاول أحدهم أن يدخل الدار فيهدم بنفسه ذلك الجدار ويطلق الروحين الحائرين الى حال سبيلهما ؟

ونظر الىّ العجوز نظرته الى طفل أبله .. ثم هز رأسه وقال فى هدوء :

– يا بنى . كف عن السخرية فما رويت لك الا ما سمعت . وما أظن أن أبى قد روى لى الكذب .. وعلى أية حال ، فهب أن القصة كلها محض خرافة .. فماذا ترى فى أولئك الذين سخروا منها كم سخرت أنت ، وحاولوا أن يقطنوها ، فلم تمض بضعة أيام الا وقد رزئوا بموت واحد منهم ، فعجلوا بالفرار منها وتركوا الدار بتحفها الثمينة ورياشها الفخمة .. دون أن يجسروا على العودة اليها قط .

– أما انهم رزئوا بموت واحد منهم .. فلا أظن الدار لها دخل فى ذلك الأمر .. الا اذا كنت تظن أنهم مخلدون فى الحياة .. وأما أنه مات بعد بضعة أيام من سكنهم الدار فالمسألة لاتعدو أن تكون مصادفة .

وتشعب بى الحديث مع العجوز فى نواح مختلفة حتى أحسست بقرصة الجوع تلذع أحشائى ، فعدت أدراجى الى الفندق الذى أنزل فيه والذى يبعد كثيرا عن الدار .

ولم يكد الظلام يسدل ستوره حتى وجدتنى أعود أدراجى الى الدار .. لقد كنت فى لهفة الى التسلل اليها والتجول فى حجراتها ورؤية ما بها من تحف مهجورة معطلة ، ولم يكن يلوح لى أى أثر قريب أو بعيد لتلك الأرواح التى حدثتنى عنها العجوز فما كانت أومن قط فى أية لحظة من لحظات حياتى أن هناك عفاريت أو شياطين أو ما يشابههما ، وما كنت لأشغل ذهنى بالتفكير فيما هو ليس بكائن الا فى الأوهام والأحلام .

ولم تكن هناك أية صعوبة فى التسلل الى الدار ، فالعجوز كثير النوم بطىء الحس .. وهو لايخطر لباله قط أن هناك من يجرؤ على الاقتراب من الدار .. بل اقتحامها والتهجم على سكانها من الأرواح والأشباح .

وقفزت على السور .. ثم عالجت احدى النوافذ بفأس عثرت عليها فى أرض الحديقة فلم أجد صعوبة فى فتحها .. وبعد هنيهة وجدت نفسى فى حجرة موحشة ، شديدة الظلمة ، فأشعلت عود ثقاب تبينت على ضوئه بضع شموع فى ركن الغرفة فأسرعت باشعالها .. وسرت أتجوّل فى الدار .. فاذا بها دار رحبة فسيحة مليئة بالتحف القيمة والتماثيل والصور .. ولم أجد بها قط ما يخيف أو يثير الذعر .. وأخذت أفكر فى سخف الإنسان الذى يهجر مثل هذه الدار خوفا من أرواح مزعومة .. واستعدت فى رأسى تلك القصة التى سمعتها من العجوز .. فوجدتنى أضحك مرة أخرى . ولكنى توقفت عن الضحك فجأة .. اذ سمعت حركة خفيفة .. وخيل الىّ أن هناك وقع أقدام تقترب .. فخشيت أن يكون الحارس قد تنبه من غفلته وأبصر بضوء الشموع يبدو من خلال النوافذ فدخل الدار يستجلى الأمر .. وخشيت أن يظننى

العجوز لصا قد اقتحم الدار يبغي السرقة .. فيصيح مستنجدا بأهل الناحية .. وأقع أنا في مأزق الله أعلم بنهايته .

ولم أدر كيف أجيب اذا ما سئلت عن سبب وجودى فى ذلك الوقت من الليل فى هذه الدار الخاوية .

وتخيلت نفسي أعدو وخلفى كل من هب ودب من صبية ورجال .. ثم رأيتنى قد وقعت فى أيديهم ، فتهافتوا على ضربى ولكمى كأنهم كانوا ينتظروننى بفارغ الصبر .

ولم يأخذ منى التفكير فى هذا المنظر البغيض الا ثوانى معدودات برق لى على أثرها خاطر وجدت فيه خير منقذ من هذا المأزق الحرج .. بل وجدت فيه تسلية وحبورا .

هذا العجوز الأحمق الذى أسمع وقع أقدامه تقترب والذى سيضبطنى بعد لحظات متلبسا بجريمة السرقة .. ليس هناك أسهل من خداعه .. فلا شك أنه يؤمن ايمانا قويا بوجود أرواح فى الدار .. فلم لا أكون أنا أحد هذه الأرواح فأجعله يفر أمامى مرتعدا ويعود أدراجه من حيث أتى .

وفى لمحة عين قعدت مكانى وأمسكت بالفأس التى فتحت بها النافذة ، وجذبت غطاء أبيض فلففت به جسدى من قمة رأسى الى أخمص قدمى وأطفأت الشموع ووقفت أنتظر ..

وساد السكون .. فلم أعد أسمع بعد ذلك وقع الأقدام التى كانت تقترب .. وخيل الىّ أن العجوز قد عاد أدراجه وكفى الله المؤمنين القتال .. فأحسست بالضيق .. وتحوّلت رغبتى من الفرار والنجاة .. الى رغبة فى الهزل والمزاح .. ووجدت أن هذه الفرصة – فرصة أن

يكون المرء عفريتا أو جنيا أو روحا - قد لاتسنح لي مرة أخرى في هذه الحياة .. فخطوت بضع خطوات في الظلام ، ودلفت الى الحجرة التي تخيلت أني سمعت صوت الأقدام يصدر من ناحيتها .. وقد أمسكت بالفأس وجمعت أطراف الملاءة البيضاء حول جسدي فلم يبد منها الا عيناي .. وانتظرت أن أرى العجوز وقد تسمر في مكانه من فرط الفزع .

ولكني بدلا من أن أرى العجوز .. رأيت عفريتا قد اتشح بالبياض وملكتني الحيرة فلم أدر كيف أبدا الحديث .

وأخيرا تحدث العفريت ليسألني من أكون .. فاذا بصوته مليء بنعومة ورقة ، من النوع اللطيف .. فأدركت أنها عفريتة .. واطمأن قلبي قليلا .. ورأيتني أعود بذهني دون أن أدري فأستعيد قصة العجوز .. وقلت لنفسي ان صاحبتنا لابد وأن تكون الفتاة سجينة القبو .. وأحسست برجفة تسري في بدني فقد خشيت أن تظنني الفتى الذي سجنها فيكون نصيبي منها عداوة لا أستحقها .. فأسرعت لنفي الشبهات عن نفسي ولأبين لها حسن نيتي .

قلت : الظاهر أني تأخرت قليلا .. فقد كنت في طريقي الى القبو لأطلق سراح سيدتي ..

وسادت فترة صمت قبل أن تقول :

- أبعد هذه القرون التي مضت .. جئت الآن تفكر في اطلاق سراحي ؟

يا للسخرية ! إذن فهذه العفريتة البلهاء تظنني عفريتا ! والله ماظننت قط أن العفاريت بمثل هذه السذاجة !

واقتربت من الشبح الأبيض وجثوت على ركبتى وقلت هاتفا : هذه القرون التى ولت .. لم تزدنى الا لهيبا .

وخيل الىّ أن أبصر ابتسامة سخرية تلمع فى عينى العفريتة .. ثم سمعتها تقاطعنى بصوت يغلبه الضحك : – ضم الملاءة قليلا الى جسدك .. فالعفاريت لايلبسون البنطلون .

ونظرت الى أسفل فاذا بالملاءة قد انحسرت عن ركبتى فظهر البنطلون .

يا للكارثة .. لقد اكتشفت الخبيثة كذبتى .. وشعرت بالحيرة تتملكنى ولم أستطع الا الاستمرار فى الكذب فسألتها : ومن حرّم على العفاريت لبس البنطلون .. أليس فيه ستر من العرى ؟ .. ان كان البنطلون يعتبر لديك مانعا من أن أكون فى زمرة العفاريت .. فأظن أن المسألة بسيطة جدا .

ثم مددت يدى الى الحزام وهممت بخلع البنطلون .. وبدت من العفريتة صرخة خجل ورأيتها ترفع يدها فتحجب بها عينيها .. بينما انحسرت ملاءتها قليلا . فأبصرت منها ما جعلنى أشك كثيرا فى سلامة عقلى !!

يا للذكاء الذى خبا .. العقل الذى ضل .. هذه العفريتة لابد وأن تكون آدمية من لحم ودم ، فأغلب ظنى أنها قد سمعت من الحارس العجوز القصة كما سمعتها وساقها حب الاستطلاع كما ساقنى .. ثم أحست بضجتى كما أحسست بضجتها .. ففعلت كما فعلت والتقينا نحن الاثنين .. ولكنها كانت أكثر منى ذكاء فكشفت أمرى قبل أن أكشف تدبيرها .

ولم أر خيرا من أن أقوم فأحتضن الفتاة وأوسعها لثما وتقبيلا .. وحاولت التخلص من ذراعي صائحة : (انى أمقتك .. اننى أفضل العودة الى سجنى فى القبو المظلم) .

يا للفتاة الحمقاء .. أما زالت مصرّة على أنها عفريتة !! .. اذاً ليكن لها ما تشاء .. ورفعت الملاءة من الأرض فلففت بها نفسى وأمسكت بالفأس .. وسألتها التكرم بلقاء آخر .

وفي اليوم التالى تسللت الى الدار وارتديت ملابس العفاريت .. وبعد لحظات أحسست بوقع أقدام العفريتة متشحة بملاءتها البيضاء .. وكان بيننا حديث ذو شجون .. وعندما افترقنا كانت العلاقات بيننا علاقة ود وصداقة . وتكرر اللقاء بيننا .. فى نفس الموعد وبنفس الطريقة .. وبدا الحب ينشب مخالبه فى قلبينا رويدا رويدا .

وأخيرا أبصرت العفريتة للمرة الأولى فى وضح النهار .. ورأتنى هى الأخرى .. وليتها ما رأتنى .. فقد كنت أسير مع احدى صاحباتى .

وفى المساء ذهبت الى الدار .. وانتظرتها فلم تحضر .. ومضت بضعة أيام وهى ممعنة فى هجرتها .. وأخيرا التقيت بها فى ضبيحة ذات يوم .. وأبصرت فيها آدمية فاتنة ساحرة .. فانتحيت بها جانبا وهمست فى أذنها :

- ما ظننت قط أن العفاريت تغير من الآدميين !

- كفى عبثا .. لا أحب الخديعة .

ونظرت الى الفتاة فأدركت أن نصفى الآخر لايمكن أن يكون الا هى .. فعزمت على الزواج منها وأن نقطن الدار التى التقينا بها اول

مرة .. وأقمنا العرس فى الدار وملأناها بهجة وحبورا .. ومضت بضعة أيام ونحن ننعم بالحب والهناء .

وذات يوم أخبرتنى الفتاة المحبوبة أنها تحس بوعكة .. ولزمت الفراش وأخذت فى الذبول كأنها زهرة تذوى . حتى حلت نهايتها أخيرا .

وتركت الدار المخيفة ورأيت حارسها ينظر الىّ باشفاق وسمعته يهمس : لقد حذرتك فأخبرتنى أن المسألة لاتعدو الصدفة .. ليتك صدقتنى !

* * *